

المقري الأديب

أعلام المؤرخين

المقري الأديب والمؤرخ صاحب كتاب نضح الطيب

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي اليعيش ابن محمد التلمساني المقري نسبة إلى مقرة من قرى تلمسان. مؤرخ أندلسي وُلِدَ بتلمسان بالجزائر ونشأ بها، انتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها. وكان كثير الأسفار، زار مصر والشام والحجاز أكثر من مرة. واشتهر بمؤلفه نضح الطيب. وكتابه أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض اتخذ فيه من القاضي عياض نواة حشد حولها المعلومات الأدبية والتاريخية. ولم يكتف بأخبار عصره ومصره، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله.

وكان المقري شديد الإعجاب بشخصية الوزير الغرناطي العالم والأديب لسان الدين بن الخطيب، ومن ثم كان غرضه من هذا المؤلف أن يتناول شخصية ابن الخطيب من كل جوانبها.

وينقسم الكتاب قسمين، وكل قسم في ثمانية أبواب:

فالقسم الأول بأبوابه الثمانية يختص بالأندلس، فيصفها في عمراتها وعاصمتها قرطبة وجامعها والزهراء الناصرية والعامرية، ثم يفرد حديثاً عن الخلافة الأموية بالأندلس وعن قوة الإسلام وسلطانه في شبه الجزيرة الأندلسية.

ونجد في هذا القسم تعريفاً بأعلام الشخصيات الأندلسية، التي رحلت إلى المشرق لإكمال دراستها أو تلقي العلم. وكانت الرحلة إلى المشرق من متطلبات التكوين العلمي والأدبي لأهل الأندلس، كما يذكر أولئك المشاركة الذين وفدوا على الأندلس من أعلام الأدباء والمفكرين. وهذا القسم مليء بالأخبار الطريفة والأشعار الكثيرة،

كما تتنوع تراجم الشخصيات الأندلسية فيه بين ملوك وأمراء وقواد ووزراء وشعراء وكتاب وقضاة وفقهاء وزهاد وغيرهم. وأهم ما يميز هذا القسم غلبة الطابع الأدبي عليه.

أما القسم الثاني بأبوابه الثمانية فمخصص لابن الخطيب، يتحدث فيه المقرئ عن أصله ونشأته وثقافته ومناصبه ورحلاته، كما يعرض لتلاميذه ومريديه وأصدقائه وندمائه وحاسديه وأعدائه.

وأهمية هذا القسم أنه حفظ قدرًا طيبًا من تراث ابن الخطيب النثري، كما حفظ شعره وموشحاته وأزجاله.

وتعد مقدمة الكتاب من معالم النثر الأدبي للمقرئ. فهي أقرب ما تكون إلى ما عرف بأدب الرحلة، إذ يتحدث فيها عن رحلته من المغرب إلى مصر، برًا وبحرًا، ويصف ما عاناه من أهوال الرحلة ثم زيارته للبيت الحرام ووصوله بعد ذلك إلى مصر. وخلال كل ذلك يصف ما اعتراه من شوق وما عاناه من وجد وهو بعيد عن بلده يصطلي بالحنين إليها.

كما تحفل المقدمة بطائفة من الشعر له ولغيره في وصف الوطن وحرقة البعد عنه، حتى أضحت المقدمة سفرًا قيمًا في أدب الرحلة وأدب الديار.

وأسلوب النصح مشوق وجذاب، وإن غلب عليه السجع، ذلك أن المقرئ كان يتشبه في أسلوبه بلسان الدين بن الخطيب. كما كانت الاستطرادات، لكثرتها، مشتتة لذهن القارئ، بجانب أن بعض الأخبار تتكرر في أكثر من موضع. ومن إيجابيات الكتاب اعتماد المقرئ أسلوب الرواية فيما يورده من أخبار، فيرجع كل خبر إلى أصله وكل شعر إلى مصدره. ويعد نصح الطيب من آخر الموسوعات العربية الكبرى

والمتمخصصة في التراث الإسلامي الأندلسي؛ لعنايته بالجانب التاريخي السياسي وبأدب الرحلة والبلدان والترجمات وذكر الحروب، كما عكس الأسى والأسف لضياح الأندلس إذ أن الكتاب كتب وما يزال الجرح نازقاً.

السبب وراء تأليف المقري لكتابه نفع الطيب:

١ - إعجابه بلسان الدين ابن الخطيب، بحيث يقلده في طريقته الإنشائية ويحفظ الكثير من رسائله وشعره، كان كفيلاً بدفعه إلى كتابة مؤلف عنه، وخاصة لإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحس بهما (مثله الأعلى) حينما لجأ إلى المغرب.

٢ - أن مثل هذا الكتاب كان كفيلاً بأن ينفس عنه كربته، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه، عودة نفسية وروحية.

٣ - أن المنهج للتأليف في لسان الدين كان سهلاً مفتوح المسارب أمام عينيه لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض كتاباً سماه (أزهار الرياض).

٤ - أن انقسام آخر الروابط الإسلامية من الأندلس لم يكن قد مضى عليه إلا سنوات، فكانت صورة (المأساة) ما تزال تلح على مخيلة المقري، وكان الربط بين الماضي والحاضر من الأمور التي تعين على التذكر والتذكير والعبرة في أن واحد؛ وكل من قرأ (نفع الطيب) يتأمل، سيشعر بهذه الناحية، وكفيلاً مثلاً على ذلك تلك الوقفة الطويلة التي وقفها المقري وهو يستعيد صورة المنصور بن أبي عامر الذي يمثل البطولة العربية بالأندلس في أوجها.

٥ - كان المقري كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشاركة

للتراث الأندلسي والمغربي، وكان تلك الإهمال في القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية، أما في عصر المقرئ فكان سببه ضعف الثقافة عامة، وحسبك أن تجد لسان الدين - وهو من هو في المغرب والأندلس - محتاجاً إلى من يعرف المشاركة به ويحدثهم عن أخباره؛ ولهذا وجد المقرئ أن كتابه مؤلف جامع شامل تحقق هذا الغرض، وكان في البدء يزعم أن يقصره على لسان الدين، ثم وجد أن صورة لسان الدين لا يمكن أن تتضح إلا على محمل من التطور الأنبيسي والسياسي في الأندلس. وفي الوقت نفسه كان الكتاب يحقق تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب، ولهذا خصص جزءاً كبيراً من كتابه للرحلتين: رحلة المغاربة إلى الشرق ورحلة المشاركة إلى الأندلس والمغرب، وفي هذه الناحية الثانية كان المقرئ يحس أنه حلقة في تلك السلسلة الطويلة، وكأنه في مقدمة الكتاب وفي بعض فصوله الأخرى سجل طرفاً من رحلة، كما سجل أسلافه من قبل أخبار تنقلاتهم. وبذلك أسعفه مؤلفه هذا على أن يحقق ما قد نسميه (نزعة مغربية) وهي نزعة لا تقتصر على الرحلة وإنما كانت تشمل نقل التراث المغربي الخالص والأندلسي إلى المشاركة.

٦ - كان تأليف نفح الطيب بمثابة وعد كان المقرئ قد قطعه على نفسه وأنجزه، فقد حدث تلامذته فيها عن لسان الدين ومكانته السياسية والأدبية فأثار في نفوسهم حب الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه، وكان أحمد الشاهيني المدرس بالجمقية أشدهم إلحاحاً في ذلك، ولهذا نزل المقرئ عند رغبته، ووعد إياه، وكان في البداية يزعم أن يسميه (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب) فلما رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها غير اسم الكتاب وجعله (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

ونكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب). وعلى هذا النحو أصبح الكتاب قسمين: قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شئون. وفي كل قسم من هذين القسمين ثمانية فصول.

وقد طبع النفح عدة طبعات في المشرق كان أولها طبعة بولاق سنة ١٢٧٩، ثم كان آخر الطبعات المشرقية طبعة المكتبة التجارية بإشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٩).

- مؤلفات المقري:

١ - روضة الآس العاطرة الأنفاس في نكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض.

٣ - إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة.

٤ - إتحاف المغرم المغربي في شرح السنوسية الصغرى.

٥ - أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي سماها "إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس".

٦ - حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.

٧ - عرف النشوق من أخبار دمشق.

٨ - شرح مقدمة ابن خلدون.

٩ - قطف المهتصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر

خليل.

١٠ - فتح المتعال في مدح النعال.

- ١١ - وكان المقرئ قد ختم كتابه السابق بـرجز في النعال الشريفة ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلاني ولعله المسمى " النفحات العنبرية في نعل خير البرية " .
- ١٢ - وللمقرئ أراجيز كثيرة أخرى منها " أزهار الكمامة في شرف العمامة " .
- ١٣ - والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين .
- ١٤ - ورجز " نيل المرام المغتبط لطالب الخمس الخالي الوسط " .
- ١٥ - البلدة والنشأة .
- ١٦ - الغث والسمين والرت والثمين .
- ١٧ - حسن الثنا في العفو عن جنى .
- ١٨ - الأصفياء .
- ١٩ - الشفاء في بديع الاكتفاء .
- ٢٠ - القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية .
- ٢١ - النمط الأكمل في نكر المستقبل .
- ٢٢ - أرجوزة في الإمامة .
- ٢٣ - نظم في علم الجدول .
- ٢٤ - وذكر في النفع أنه كان يزعم تأليف كتاب في تلمسان يسميه: (أنواء نيسان في أبناء تلمسان) ويبدو أنه لم يحقق ذلك .
- ٢٥ - شرح له على قصيدة (سيحان من قسم الحظوظ) .
- ٢٦ - ونسبت له المصادر كتاب (الجمان من مختصر أخبار الزمان) .
-

٢٧ - رسالة (إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة).

٢٨ - وأخيراً كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)

موضوع الاختصار.

وفيما كان يزعم الهجرة من مصر ليستوطن الشام، وافته منيته

في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ.

* * *